الشّاطئ. قفي هناك. إلى جانب تلك الشّجرة، لأنّ نجاح المعالجة متوقّف عليك.

وسارت الممرّضة العجوز أمامي حتّى اختفت في ماء البحيرة. سرتُ وراءها كالمضبوع لأغرق شيئاً فشيئاً في ماء البحيرة الأحمر.

أخذت أتخبّط باللّون الأحمر. أنّى تحرّكت أرى الأحمر. أنّى تلفّتّ يحيطني اللّون الأحمر. أنّى أدرت نظري يغرقني اللّون الأحمر بين طيّاته.

تنشّقت قليلاً من الهواء محاولاً أن أنقذ نفسي، أفتح فمي كسمكة على شاطئ البحيرة، العاري تحت شمس لاهبة. أريد أن ألتقط الهواء بشفتي اليابستين فلا أستطيع. كنت أخوض في الماء وأفقد الزّمن الّذي يربطني بالحياة. كنت أريد أن أصرخ بأعلى صوتي على.. ن. ولكن الماء كان يُحكم الطّوق عليّ.. وما إن بلغتْ قدمي شيئاً صلباً في القاع الّذي أخوض فيه حتّى رأيت نفسي في القمّة، رأيت على مستوى النّظر، فوق الماء، جزيرة ذهبيّة مسبوكة من خيوط الشّمس. شمس تصعد وهي تصدر رنيناً مكتوماً كرنين الذّهب المتساقط على أرض صلبة. حاولت أن أجد شيئاً لأمسك به، أنقذ نفسي من غرق محتم، فلا أجد سوى رأس يابس يطفو بين يديّ فأتركه مذعوراً. ثمّ أحاول أن أمدّ يدي إلى أطراف صخور الجزيرة ـ هكذا خيّل لي ـ الّتي اقتربت منها كقارب نجاة صغير فتحطّ يدي على اللّون الأحمر، تغوص أصابعي في الزّبد الأحمر. حاولت أن أفرك عيني بعد أن أحسست بالخيبة ففقدت توازني، سارعت إلى وضع يدي فوق سطح اللّون الأحمر الّذي أغرق فيه لأتوازن. أقف هنيهة أتماسك محاولاً أن ألتقط الهواء، فألتقطه جافّاً، ساخناً، يجرح أنفي وحلقي. هواء مشبع بحرارة ناريّة تشوي شفتي.. وفجأة أنتبه.. هناك على حافة صخور الجزيرة جسد امرأة عارية، أشبه بحوريّة بحر تنزل عن الجزيرة، تنزلق من بين صخورها، تغوص برأسها في اللّون الأحمر.. أفرح. أشعر بأنّ نجدة ما جاءت إليّ. أنسى الوضع الصّعب الّذي أنا فيه، أغيب عن الوعي، أنسى عطشي واختناقي وغرقي الّذي بات وشيكاً..

* * *

أسمع غناء بعيداً يحيط بالمرأة الحوريّة ـ كانت ذات شعر طويل ينسرح مع الماء إلى الوراء، ووجهها الّذي تزيّنه عينان خضراوان تغطّيه قطرات الماء الأحمر. أمّا بشرتها الخمريّة فتلمع تحت وهج الشّمس بلون عسلي. إنّها تسبح باتّجاهي.. ولكنّ المسافة الّتي بيني وبين حوريّة البحر كانت تزداد رغم سباحتها المستمرّة باتّجاهي. كان لا يقترب منّي سوى صوت غنائها، غناء دقيق كأنّه ينبع من فجاج صخور لمغاور غائبة في جوف اللّون الأحمر، أو مغاور بلّوريّة تطير مع الأثير، أو مغاور رخاميّة غائصة في الأعماق..

وأفتح فمي، أهتف بها: يا.. ويضيع صوتي، يختفي بقيّة ندائي. أشعر كأنّ ذهباً مصهوراً قد انسكب في جوفي عبر فتحتيْ أنفي وعيني وفمي الّذي فتحته على آخره لألتقط قليلاً من الهواء..

حاولت النّداء مرّة أخرى قبل أن تكفّ الفقاعات المائيّة عن انفجاراتها فوق رأسي على سطح البحيرة: يا...

واستيقظت وأنا مبلّل بالعرق. لأجد كلّ الّذين رأيتهم في منامي جالسين على طرفي السّرير يحدّقون إليّ بعيون ذابلة أكلها السّهر الطّويل. فاجتاحني الرّعب، زحفت إلى الوراء وأنا أهتف: النّجدة..

سرّ سقوط العامل رقم «٦٣٤»

سمير البرقاوي

السّكرتيرة:

كان نهاراً شاقّاً ومتعباً، فالهواتف لم تتوقّف عن الرّنين، والأوراق الواردة من جميع الأقسام بغرض مراجعة الإدارة أو الطّباعة والتّوقيع كانت أكثر من أي يوم آخر. ولهذا تناولت خلال أربع ساعات فقط خمسة فناجين قهوة وخمس عشرة سيجارة.

وليت الأمر توقّف عند هذا الحدّ؛ فالأمور السّيّئة حينما تحدث فهي كأنّما تتّفق على موعد واحد تتدافع فيه لتزيد الهموم والمتاعب.

فمنذ جلوسي صباحاً على الكرسي خلف المكتب، كنت قد اتّخذت قراري، بخصوص حسم علاقتي بالمدير: إمّا أن يأخذ علاقتنا بشكل جدّي تنتهي بالزّواج، أو أنّني سأنقطع عن العمل كلّياً هنا وأبحث عن عمل في شركة أخرى بعيداً عنه. ولهذا قمت بكتابة ورقة بذلك ووضعتُها على مكتبه داخل ظرف خاص، ليجدها أمامه إذا ما جاء في فترة الدّوام بعد ساعات الغداء. وعدت نحو حقيبتي. أخذتها ودخلت دورة المياه، وقفت أمام المرآة، قمت بترتيب شعري وأعدت تثبيت أحمر الشّفاه، ثمّ تناولت قنّينة العطر الّتي أمداني إيّاها ووضعت قليلاً منها على رسغي وملابسي وخرجت.

عندما سرت صوب الممرّ الّذي يُفضي إلى باب الخروج التّابع للإدارة، كان هناك عامل يقوم بإصلاح محوّل الكهرباء. ولعلّه اختار وقت الاستراحة حتّى لا يتذمّر الموظّفون من انقطاع التيّار الكهربائي عن مكيّفات الهواء. وفي الوقت الّذي كنت فيه أجتازه لمحته يترنّح ليسقط فجأة ممدّداً على الأرض أمامي. حمدت الله أنّه لم يسقط نحوي فيسقطني أرضاً معه، ليضعني في حرج لا ينقصني في هذا اليوم البالغ السّوء.

فتحت باب الخروج واستدعيت عمّال النّظافة طالبة منهم حمله

وأخذه لعيادة طبيب الشّركة، وخرجت لأشاهد بقيّة الموظّفين يتكدّسون عند باب المصعد. ولهذا فضّلت حينها أن أستخدم السّلالم للنّزول.

طبيب الشّركة:

رغم إحساسي بقسوة ما فعلت، فإنّ الإحساس الأكثر طغياناً وتأكيداً لديّ هو أنّه لم يكن بإمكاني أن أورّط نفسي في مشاكل إداريّة لا أستطيع تحمّل نتائجها.

فالعامل الّذي أحضروه للعيادة هذا اليوم في الوقت الّذي كنت أتهيّأ فيه للخروج، كان بحالة جيّدة لولا بعض ملامح الذّهول والخجل الّتي كانت تعلو وجهه، وهو نفسه كان يؤكّد أنّ صحّته جيّدة وأنّه يريد أن يذهب ليتابع عمله فحسب. إلاّ أنّ العاملين اللّذين أحضراه قالا إنّه أغمي عليه وسقط على الأرض.

ولهذا قمت بإجراء الفحوصات اللاّزمة له. وتبيّن لي أنّ وضعه طبيعي ولا خوف عليه. ولكنّي مع كلّ هذا بقيت متخوّفاً من احتمال وقوعه ثانية من مكان مرتفع أثناء العمل فيصيبه أذىً كبير، وحينها ستضطرّ الشّركة لدفع التّعويضات، وبخاصّة بعد رفضها التّأمين على سلامة عمّال الكهرباء والصّيانة، على الأقلّ، توفيراً للنّفقات. وعندها ستحمّلني الإدارة المسؤوليّة وقد أفقد عملي من جرّاء ذلك. وهكذا فقد قمت بكتابة التّقرير التّالي:

السّيّد المدير العام المحترم
تحيّة وبعد،

بخصوص حالة عامل الصّيانة رقم «٦٣٤» [دبلوم صناعي ـ مصري الجنسيّة] الّذي أُحضر هذا اليوم لعيادتي بعد حالة إغماء مفاجئة، فلقد قمت بإجراء الفحوص اللاّزمة، وتبيّن لي بأنّه تعرّض لحالة الإغماء بسبب ارتفاع مفاجئ في ضغط الدم، ومن غير المستبعد أن تتكرّر هذه الحالة أثناء تأديته عمله خلال الدّوام الرّسمي. ويبقى، في النّهاية، لكم الأمر للبتّ بشأنه.

موقعه: طبيب الشّركة

لم يكن هناك أمامي حلّ آخر. أليس كذلك؟

المدير العامّ:

لم أستطع الحضور للشّركة في الفترة الصّباحيّة بسبب انعقاد اجتماع مجلس الإدارة لشركة العقارات الوطنيّة. وكان لابدّ من وجودي بصفتي عضواً فيه. وعندما عدت في فترة الظّهيرة كانت الأوراق والتّقارير تغطّي المكتب. ولكنّي أهملتها جميعاً وتناولت رسالتها هي، فقد عرفت خطّها على الظّرف. وإذ انتهيت من قراءتها انتابني إحساس بالضّيق، هل هي غبيّة إلى هذا الحدّ حتّى تعتقد بأنّي سأقوم بالزّواج منها؟ هي تكاد تكون في عمر ابنتي الكبرى، فلتذهب للجحيم! لا يمكن أن أفعل شيئاً كهذا، وإن لم تعد لعملها خلال ثلاثة أيّام فسأقوم بوضع إعلان في الجرائد اليوميّة طلباً لواحدة أخرى. أمسكت رسالتها، ضغطت عليها بكفّي جيّداً حتّى تكوّرت وتصلّبت ثمّ ألقيت بها داخل سلّة المهملات.

تناولت تقرير طبيب الشّركة الّذي أدخله المراسل قبل قليل وقرأته مليّاً، كان بخصوص العامل رقم «٦٣٤». تناولت القلم الأحمر ودوّنت أسفل التّقرير:

«تلغى إقامته ويتمّ ترحيله على نفقته الخاصّة».

ونهضت متّجهاً نحو الباب، إذْ لم يعد لديّ رغبة في العمل.

العامل عبد المعطي حسنين:

ـ هل كنت مريضاً من قبل؟

سأله صديقه الّذي كان يجلس إلى جواره في قاعة الانتظار الفسيحة لمطار الكويت الدّولي، لكنّه لم يجب وبقي ساهماً مطرقاً، وهو ما حداه أن يعيد السّؤال بصوت عالٍ هذه المرّة.

ـ هل كنت مريضاً قبل أن تأتي للعمل هنا؟

رفع عبد المعطي رأسه، كأنّما بوغت بصوت صديقه. ونظر صوبه، منتظراً، إلى أن استطاع إعادة الكلمات في ذهنه واستيعابها، فأجاب:

ـ لست مريضاً.

ـ ما الّذي حدث إذن، وكيف سقطت؟

ـ لن تصدّق.

ـ لن تكذب.

أدار عبد المعطي رأسه للجهة الأخرى، فشاهد فوجاً من العمّال الآسيويّين يحملون حقائبهم في لحظة دخولهم المطار وهم يتضاحكون. كان يحسّ بالخجل ممّا حدث له، ولم يكن ليصدّق بأنّ ذلك سيدفعه إلى مغادرة البلد الّذي وصله من أجل شراء قطعة أرض في قريته، حتّى قبل أن يتمكّن من جمع الثّمن الّذي دفعه للحصول على تصريح العملة... نظر صوب صديقه من جديد قائلاً:

ـ الرّائحة.

ـ ماذا؟

ـ رائحة العطر هي السّبب في سقوطي.

دهش صديقه، وظلّ ينظر إليه مستغرباً بانتظار أن يكمل. بلع عبد المعطي اللّعاب المترسّب في حلقه بصعوبة بالغة... وتابع:

ـ حينما كنت أقوم بصيانة محوّل الكهرباء القريب من باب قسم الإدارة في فترة انتهاء الدّوام الصّباحي وخروج الموظّفين، سمعت طرقات حذاء نسائي في الممرّ، وعلمت أنّها السّكرتيرة، لأنّه لم تكن هنالك امرأة سواها تعمل في ذلك القسم. وحينما اقتربت منّي، كنت قد قرّرت أن استرق نظرة لها عن قرب، إذْ كنت قد رأيتها قبل ذلك وأعلم مقدار الجمال الّذي تتمتّع به. كانت لحظة نزق لا أكثر أملتها ظروف الملل والحرمان، وحينما أدرت رأسي لمشاهدتها، لم أتمكّن من ذلك.

صمت عبد المعطي وأحسّ بكرة اللّهب تشتعل في حلقه، فقال صديقه بنفاد صبر:

ـ لماذا، ما الّذي حدث؟

فتابع عبد المعطي وصوته مشبع بالمرارة:

ـ بينما أنا أدير رأسي نحوها كانت دفقة شديدة من رائحة عطرها قد نفذت إلى أنفي. وخلال ثوان قليلة حصل كلّ شيء. فبتأثير الرّائحة أغمضت عينيّ وتدافعتْ سريعاً ورغماً عنّي الصّور والأفكار... زوجتي الّتي لم أرها منذ سنة ونصف.. رغبتها بأن أرسل قنّينة عطر لها حينما أعود للزّيارة... قطعة الأرض الّتي أحلم بشرائها... أشياء كثيرة بدت لي كأنّها رؤيا، ولكنّها رؤيا تظلم ولا تنير...

قال كل ذلك بأسى بالغ وبصوت متهدّج مقهور. ثمّ صمت.

ربّت صديقه على كتفه مواسياً. ثمّ جعلا يحدّقان أمامهما بذهول فلا يريان إلاّ فضاءً معتماً داكناً.. بانتظار موعد إقلاع الطّائرة.

الرّصيفة ـ الأردن

الزّمن

عبد السلام السيدي

اقتعد كرسيّاً من الخيزران في حديقة بيته الصّغير.. تابع ببصره ثلّة من الأطفال الهنود، وهم يلعبون الكرة. كان يتصفّح كتاباً.. اعتاد هذه الجلسة في الأيّام الصّائفة، حين يشتدّ الحرّ في الدّاخل، يوزّع نظراته بين صفحات الكتاب ورؤية الأطفال. وتأمّل أزهار عباد الشّمس الصّفراء، وهي تلاحق الجرم السّماوي، المتلفّع بأسمال الشّفق.. تهتزّ شجيرات الحديقة.. يهتزّ قلبه، ويتساقط الزّمن الميّت في داخله، ركاماً من رماد بارد.. بشرود ينكفئ على عالمه الدّاخلي حيث بقايا ساعات محطّمة، وأشياء عتيقة باهتة، جرفها تيّار الزّمن إلى هاوية سحيقة غارقة في الظّلام.. طفا مرّة أخرى إلى السّطح، حدث هذا بَغْتَةً. الكرة الّتي قذف بها الصّبية، هوت وسط الحديقة، جذبته بعنف، كغوّاص انتشله رفاقه من أعماق سحيقة، بينما كان فرحاً بجنى المرجان والمحار وأشياء الأعماق الجميلة.. انحنى أحد الصّبية محيياً، واضعاً راحتيه المطبقتين أمام صدره قائلاً بلغة انجليزيّة: أعطني الكرة يا عمّي..

ثنى الصّفحة الّتي توقّف عندها، ونهض بتثاقل، تخطّى السّياج، ودلف للحديقة. انحنى يرفع الكرة، ثم يعود إلى مجلسه..

رآهم يقفون إزاءه ينظرون إليه بخجل..

قال، بالإنجليزيّة، مخاطباً أحدهم: «سمراد» لا تجئ بالأولاد للّعب قرب الحديقة. ها أنتم تحطّمون الأشجار الجميلة.. ها.. سأخبر والده..

ردّ الصّبي الهندي الّذي يلفّ رأسه بعمامة زرقاء، وهو يبتسم بمرح:

ـ حسناً، سنذهب للعب بعيداً عن الحديقة..

تراكضوا وهم يلوّحون بأيديهم وأماراتُ الفرح بادية على وجوههم السّمراء..

عاد يقلّب بصره في شجيرات حديقته. رأى شجيرة عبّاد الشّمس، محطّمة، منذ دقائق كانت مزدهرة، بأزهارها الصّفراء الجميلة، وها هي الآن في زمن جديد. ماضيها ذكرى، كأيّامه الفائتة. هو الآخر يصير إنساناً جديداً، الزّمن في داخله وحوله ينسحق، ويتلاشى في الهاوية.. هزّ رأسه محاولاً طرد تلك الهواجس الّتي تثير فيه الشّجن. مدّ بصره صوب شجرة خرّوب منتصبة عند بركة صنعتها مياه المجارير. رأى قطّاً أسود يلمّظ، قذفه بحجر، كاد يصطدم برأسه. هرب الحيوان بعيداً، ليختفي بين الأعشاب المتماوجة..

رأى عشّاً يسقط من شجرة الخرّوب ذات الأوراق المغبرّة. طفا العشّ فوق صفحة المياه الكدرة. طفق طائر صغير يغطّي جسده الزّغب، يضرب برجليه وجناحيه، محاولاً الخلاص، بضربات واهنة. تأمّله بأسى مشوب بالشّفقة.. انتبه الصّبية.. توقّفوا عن اللّعب، رأوه يخوض في مياه البركة، فركضوا إليه، توقّفوا قبالته. قال أحدهم بفصول وهو يزرع نظراته في وجه الرّجل الّذي كان يخوض المياه، مشمّراً عن ساقيْ بنطاله:

ـ ماذا تفعل يا عمّي؟!

التفت إليه، قائلاً في نفسه. لم لا أدعو أحدهم يحوص المياه، إنّهم أكثر نشاطاً، وهذه المغامرة تجلب لهم الفرحة..

ـ من يقدر على انتشال ذلك الطّائر؟

ارتفعت الأصوات الصّاخبة: أنا.. أنا..

أشار بإصبعه إلى أطولهم قامة وكان فتى حاسر الرأس..

ـ هل تستطيع ولوج البركة؟

ـ أجل.. سأجيء بالطّائر الصّغير..

انحنى يشمّر ساقيْ بنطاله، قلّب الصّغير بصره في اتّجاه البركة.. رأى بقعةً سوداء.. مدّ الرّجل إصبعه باتّجاه البركة..

انظر إنّه هناك.. هيّا.. اذهب لانتشاله..

تراجع الرّجل، ليقف على حافة البركة، وحوله الصّبية، يرقبون الصّبي الطّويل وهو يحوص المياه الّتي غطّت ركبتيه.. امتدّت يده ترفع العشّ، نظر في تجويفه، رأى مهداً من الرّيش والقشّ، بيضاً مهشّما وزراقاً.. أخذه ومضى صوب البقعة السّوداء، رآه بجرمه الصّغير